قصّة قصيرة

العربي التائه

هاني الراهب

بينهما جدار من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً.

في ذلك اللّيل جاءه اثنان وقالا إنّه سيخرج. وسميح أيضاً، والياس، ومحمود، وزياد. لم يعرف إلى أين. كان عليه أن ينصاع فانصاع. خلال ثلاثة عشر عاماً جاءه مثل هذا القول مرّات ومرّات ـ ويخرج: إمّا إلى عمق الأرض، وإمّا إلى غرفة التكنولوجيا، وإمّا إلى مكتب النقيب دوف أو حاييم أو ليفي..

يخرج، إلى مكان صار مألوفاً: زنزانة تهوي في العمق ويهوي جسده إليها، أيّاماً وأسابيع وشهوراً. وداخل ظلمة شاملة ورطوبة راشحة، يستنقع الجسد حتّى يغترب عن صاحبه، يصير كتلة مجاورة موحشة، استطالة تضني.

يخرج: إلى غرفة الكهرباء، أو إلى غيرها من أماكن محنة الجسد، هناك حيث يصير بودّه لو يتفرّج على جسده، لو تنقطع علاقته به كما في الزنزانة؛ سوى أنّه لا يستطيع. حيث ينخلع ظفر من أصبعه بلمح البصر، ينشجّ سنّ وينفر دمه، حيث يثب حسده في شبه غيبوبة، يثب مكرهاً، والكهرباء تمخره، ويثب وجدران رأسه تترنّح، ولحم جسده ينفلع، والكهرباء تمخره، ويثب، ويشهق، وينطوي.

ثلاثة عشر عاماً.

في ذلك اللّيل انغلق الباب، واختلى جيمي كارتر وأنور السّادات في حديث طويل. قال لنا المذياع إنّ الرّجلين اختليا لإحلال السّلام بين مصر واسرائيل. قال لنا المعلّقون الإذاعيّون إنّ المستقبل السّياسي لرئيس أعظم دولة في العالم معلّق بكفّ عفريت، فإمّا السلام وفترة رئاسية ثانية، وإمّا الحرب والفشل.

من يعرف ما الّذي دار بين كارتر والسّادات؟؟ لا نعرف، نحن الّذين لا نعرف شيئاً. يمكننا فقط أن نتصوّر: لقد جلسا على كنبات وثيرة بالتّأكيد. كان بينهما مرطبات مصريّة وبعض الحلوى، وربّما ويسكي، وعلبة تبغ، وبالطّبع مصيرنا نحن العرب. وبين حين وحين، كان السّادات يفرغ غليونه ويملأه.

في ذلك اللّيل ساروا عبر الرّواق، هو في الوسط والحارسان إلى جانبيه. صعدوا درجاً: إذن الخروج إلى مكتب النقيب شموئيل. وقال لنفسه، بعد ثلاثة عشر عاماً، ماذا بقي في ذاكرته كيما يحلبونه؟ ألم يتعبوا؟

انغلق الباب، وصار وحيداً مع الضّابط. ألفى نفسه صغيراً بين الجدران العارية، غريباً على المقعد المبثور، جامداً أمام نظرة الضّابط الجامدة.

قال الضّابط: ـ هذه اللّيلة أنت مسافر إلى جنيف يا أحمد موسى.

من يعرف أحمد موسى؟ ما الّذي حدث لأوّل سجين فدائي خلال ثلاثة عشر عاماً؟ لا نعرف، نحن الّذين لا نعرف شيئاً. نحن نستنقع مثلما استنقع، تنشجّ حلوقنا مثلما انشجّ لحمه، نغترب عن عقولنا كما اغترب عن جسده. ولا نعرف شيئاً.

في اليوم التالي، كلّ شيء كان كالعادة مدوّخاً: الوظيفة، والسّير في الشّوارع، وتسديد وصل الكهرباء، وشراء الخبز. عبثاً أسرعتُ. حاولت تخطّي الدّور فلم يمكّنوني. وكالعادة وصلت متأخّراً. رميت الخبز كيفما اتّفق، وتفحّصت البيت فلم أجد ميسون. إذن، فاتتنا نشرة الأخبار. وضعت جسدي على الكرسي واسترخيت.

أخيراً جاءت. «تأخّرت. كنت أسمع الأخبار في الشّارع». أجل، قلت لنفسي، يا للغباء! كيف فاتني أن أسمع الأخبار في

الشّارع؟ «اتّفق كارتر والسّادات،» قالت. ومضت تهيئ الطعام. أجل، قلت لنفسي، لماذا الشدّة؟ ما الّذي كنت أتوقّع؟ أن يضيع مستقبل كارتر السّياسي وينجو مستقبل فلسطين؟

عندما حمل كلّ منا ملعقته وصحنه، قالت: «هم؟ دفعت وصل الكهرباء؟» قلت إنّي دفعت. قالت: «واشتريت خبزاً! لماذا أنت عابس إذن؟».

ثلاثة عشر عاماً. كان مايزال عريساً، بعد أربعة أشهر من زواجه. لا نعرف ما إذا كانت عروسه حلوة، أو طويلة، أو سمراء. نعرف أنّ كلاً منهما أحبّ الآخر، وتزوّجا. وكان في الثالثة والعشرين. ويمكن أن نعرف لماذا اختار الملابس الرقطاء واتّجه نحو الموت. فليس شائعاً ولا عملياً أن تفقد الشّعوب أوطانها. وهو من شعب تفرّد خلال القرن العشرين بفقدان وطنه. وعندما صدرت الأوامر كان الخوف مستتراً تحت الملابس الرقطاء، تلجمه عند الكتف بارودة وحول الخصر أربعة قنابل. كانوا أربعة. وفي تلك اللّحظة ارتبطوا بإحساس مبهم متوتّر.

ثمّ نشبت المعركة. كانت حامية الوطيس كأيّة معركة. نتيجتها معروفة سلفاً. ولكن ماذا كان شعورهم لحظة تسلّلوا واحداً بعد الآخر إلى هدفهم المحدّد؟ أكان مثل شعورنا، نحن الّذين نقف بالدّور لشراء الخبز؟ كانت أوّل معركة يخوضها فدائيّون ضدّ جنود الاحتلال. وكانت معركة نُسيت بعد أسابيع. ماذا كان شعورهم إذ فوجئوا بالحصار والرّصاص؟ شيئاً آخر ولابدّ غير شعورنا ونحن نتدافر ونتناعر أمام الفرن. وطعم المعركة؟ ومَدّة اليد الأولى نحو القنبلة؟ والانتباه المفاجئ إلى أنّ أحدهم أطلق صرخة مختنقة ومات؟ والثاني؟ والثالث؟ والموت؟

في المساء، أعلن أنور السّادات أنّه يرجو لجيمي كارتر نجاحاً في اسرائيل يعادل نجاحه في مصر. وأعلن المذيع أنّ ستة وسبعين

فدائياً أسيراً سيفرج عنهم مقابل أسير اسرائيلي واحد. كنّا جالسين على الكراسي، ندخّن، نشرب القهوة والشّاي، ونناقش في السّياسة. ليس من عادة اسرائيل أن تفرج عن الفدائيين؛ قلنا. يا للذكاء الفاجع، أن تتمّ المبادلة يوم قبول السّادات بزوال فلسطين؛ قلنا.

أحمد موسى. ترك عروسه ومضى يقاتل لاسترداد فلسطين. رفاقه الثلاثة قُتلوا. أمّا هو فتخردق جسده بالرّصاص، وارتمى قرب بارودته. في الصّباح، عندما جاء الاسرائيليون لالتقاط الجثث، كان جسده واحداً من أربعة أجساد سقت الأرض بدمائها. تماماً كما ينشد الشّعراء ويكتب الكتّاب. سوى أنّه لم يمت. قال لتوفيق إنّه لم يدر كيف دبّت فيه الحياة ومدّ يده إلى البارودة. أدرك في شبه غيبوبة أنّهم حوله. لم يرهم. كانوا أعمدة من دخان. وقال لجسده انهض، فنهض. وتهاوت الأعمدة، ثمّ تهاوى جسده.

قال المذيع إنّ الّذين راقبوا عمليّة التّبادل ظلّوا حتّى اللّحظة الأخيرة يتوجّسون من أن يكون في الأمر فخّ إسرائيلي. وتذكّرنا كيف رفض الاسرائيليون أن يفعلوا الشيء نفسه في ميونيخ، كان عشرون منهم، أكثر أو أقلّ، في وضع مماثل. وبعدئذ قتلوا. ثمّ بدأ الخوف يضمحل. قرئت الأسماء واحداً واحداً، وأعلن أصحابها عن أنفسهم. ثمّ انطلقت الطّائرة بهم.

كان وصول كارتر إلى القدس مؤقّتاً بلباقة. صحيح أنّ الزيارة تاريخيّة، لكنّها يجب أن تبدأ بعد أن ينتهي يوم السبت عند مناحيم بيغن. قال المذيع إنّ الاستقبال كان حافلاً ـ أركان دولة اسرائيل، الجمهور، المصوّرون، المراسلون الصحفيون، البثّ المباشر. هؤلاء حوّلوا كلّ شيء إلى مهرجان. الحرب سوف تنتهي. ولن يكون هناك لزوم للفدائيين. ومناحيم بيغن سيبني المستوطنات بسلام. وأنور السّادات سينصرف إلى إشباع ملايين الجائعين في مصر ومقاومة الغزو الأجنبي لأفريقيا وآسيا. وجيمي كارتر سيستردّ ثقة الشّعب الأمريكي وينهي مأساة فلسطين.

ماذا سيفعل أحمد موسى؟ ثلاثون عاماً من الصّراع الدموي، ثلاثة عشر منها في السّجن. الزمن يسرع. حاكم يمضي وحاكم يجيء. وأحمد موسى في السّجن. مئات المعارك وحربان طاحنتان. وهو في السّجن. خلال عام تعلّم كيف يغترب عن جسده. كان التّعذيب أفظع ممّا نقرأ في الجرائد ونسمع في الإذاعة ونرى في التلفزيون. ولم تكن ثمّة وسيلة سوى أن يرفض جسده. قالوا له إنّه محكوم بالسّجن المؤبّد، فقرّر أن يغترب عن زوجته. أرسل لها حكم السّجن وورقة الطّلاق، وقال إنّها إن توقّع تغْدُ طليقة. لكنّها رفضت. ثمّ أرسل لها الورقة مرّة أخرى. ورفضت. وخلال عام تعلّم أن يغترب عن الفضاء، والشّارع، والحقل، والضوء. صار منظر الشّمس حلماً، والهواء النّقيّ ذكرى. وكلّما أفاق من حلم عاش كابوساً، وعاد إلى اغترابه. وكان الوطن كلّه قد سقط، والشّعب كلّه قد اغترب. أرسل لها ورقة ثالثة. هذه المرّة لم يعثروا لها على أثر. اتّصل بالصليب الأحمر، وأرسل لها الورقة إلى مخيّم صبرا في لبنان. ورفضت. قالت إنّها تعيش مع أمّه في كوخ التوتياء، وتنتظر. كتب لها رسالة. قال إنّها يجب أن توقّع، وتتزوّج، وتنجب أطفالاً يكبرون ويحرّرون الوطن. رفضت. قالت إنّ هناك أطفالاً كثيرين، يكبرون ويحرّرون. ولكن بالنّسبة لها، لا يوجد سوى أحمد موسى. لقد سقط الوطن كلّه، لكن أحمد موسى لن يسقط. وهي ستنتظر.

ما اسمك يا زوجة أحمد موسى؟ ما شكلك وما لون عينيك؟ وماذا تفعلين؟ كيف تطوقّين جداراً من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً، وتطلّين على أحمد موسى من هناك؟ كيف عشت كلّ هذا العمر؟ قال توفيق إنّك تستحقّين تمثالاً. قال إنّه رآك بعد خروجه من السّجن، وكان مرتبكاً لأنّه خرج وبقي أحمد. لم تظهري شيئاً يبرّر ارتباكه. ابتسمت ونظرتِ إليه بإمعان، كأنّك تحاولين أن تأخذي منه ما لا يملك. قال إنّك ابتسمت بهدوء، وقدّمت القهوة بهدوء. سألتِه عن أحمد كلّ الأسئلة المتوقّعة إلاّ واحداً: هل سيخرج. وقال إنّك امرأة منذورة، سليلة عشتار الّتي بكت أدونيس حتّى بُعث حيّاً؛ وإيزيس الّتي جمعت أشلاء أوزيريس وبعثته حيّاً. ورأيتك امرأة من هذا الزمان. تتقنين الحلاب والصرّ والانتظار. تعيشين بلا وطن. تمدّين جسدك الّذي لم يغترب عنك، على جدار طوله ثلاثة عشر عاماً. امرأة بنت أرضها، تشتهي، تبحث عن الخبز، تتمنّى لو تسكن بيتاً غير كوخ التوتياء، تحلم بالأطفال والدفء والشّمس والهواء النقيّ.

ثمّ قال المذياع إنّ جيمي كارتر عاد إلى بلاده مكلّلاً بالغار، فقد نجحت رحلة السّلام. وقال إنّ المعاهدة ستوقّع بين مصر واسرائيل، بالأحرف الأولى، يوم الأثنين. وقال إنّ ستة وسبعين فدائياً سيصلون في اليوم التالي إلى دمشق، ومن هناك ينطلقون إلى أهلهم.

وحدث هذا كلّه. ذهب أنور السّادات إلى واشنطن. وكان استقباله حافلاً. أركان الدّولة الأمريكيّة، والجمهور، والمصوّرون، والمراسلون الصحفيون، وإذاعات العالم. هؤلاء حوّلوا كلّ شيء إلى مهرجان. وجاء أحمد موسى إلى دمشق. كان واحداً من ستّة

وسبعين، استقبلهم أصدقاؤهم ومحبّوهم. وهرعنا إلى شاشة التلفزيون. جلسنا على الكراسي، وتفرّجنا ودخّنّا. لم نعرف من هو أحمد موسى. كلّما ظهر واحد قلنا هذا هو. أخيراً صاروا ستّة وسبعين أحمد موسى. بعضهم تكلّم، وكانت نبرته عادية جدّاً: الفداء، السّجن، التّعذيب، تشويه الجسد والدماغ، الغربة، تحرير فلسطين. ثمّ انتهت الصور. أفقنا. تمطّينا. نهضنا. مرّة أخرى تكلّمنا عن وحشيّة الاحتلال، عن القدس، والدّولة العنصريّة. وكان السّادات قد وصل إلى واشنطن. وكان في انتظاره كارتر وبيغن. وعندما اتّجه أحمد موسى إلى رفاقه في مخيّم اليرموك، كان الرؤساء الثلاثة يتّجهون إلى غرفة التّوقيع. وعندما عانق أحمد موسى أوّل مستقبليه، كان السّادات يعانق مناحيم بيغن. وفي اليوم التالي كانت المدافع الاسرائيليّة تمطر بلاد أدونيس بالقنابل. وكان أنور السّادات قد أنهى أسطورة اليهوديّ التّائه. وكان أحمد موسى قد وجد مخيّماً للاّجئين.

بينهما جدار من الزّمن طوله ثلاثة عشر عاماً.

كيف التقى أحمد موسى وزوجته؟ لا نعرف، نحن الّذين لا نعرف شيئاً. ليس سهلاً حتّى أن نتخيّل. هذان اللّذان اغترب أحدهما عن الآخر بقوّة السّلاح والزمن، والتقيا بالصّدفة، كيف يمكن أن يتواجها بعد ثلاثة عشر عاماً؟ الحبّ العفوي اليومي ليس لهما. ولا الاعتياد والإلفة. كيف تعرّف عليها وتعرّفت عليه؟ أتذكّرا لمعة عينين؟ شامة على الخدّ؟ امتلاء شفتين؟ غمازة؟

أغلب الظن أنّها ارتبكت، جمدت، نظرت إليه بإمعان ولم تره تماماً. رأت أنّهما يقفان على ذلك الجدار، لا على الأرض. أغلب الظن أنّها لم تدر ماذا تفعل. ولأنّها انتظرت ثلاثة عشر عاماً، آثرت أن تنتظر بضعة دقائق أخرى. أن تتركه يتصرّف. ولعلّ ابتسامة غافلة تسلّلت إلى وجهها وفمها دون أن تعي. ولعلّ الدموع تسلّلت إلى أجفانها فخضّلتها وهزّت صورته في عينيها. لعلّها كانت ايزيس أو عشتار ترقب عودة أخيها وحبيبها إلى الحياة.

وهو؟ ماذا فعل؟ كيف تصرّف، هذا الّذي نسيته الشّمس ونسيها، والفضاء والهواء والشجر، ومدّة اليد إلى وجه الحبيبة. هل اندفع إليها؟ أم وقف يتأمّل الوجه، يتذكّر التقاطيع، يغسل عنها بصمات ثلاثة عشر عاماً؟ عندما ابتسم السّادات لمناحيم بيغن والمصوّرين، هل ابتسم أحمد موسى لزوجته؟ هل شعر أنّ هذه هي زوجته، وكفى، أم أنّ شيئاً ما قد فغر فمه بينهما كخليج من العلقم؟

لعلّه هو الآخر رأى أنّهما يقفان على ذلك الجدار. لعلّ خضماً من المشاعر المعقّدة هدر في جسده اللّحيم وذهنه المخردق. وأحسّ أنّه، مثل أدونيس وأوزيريس، عليه أن يستعيد تكيّفه مع الحياة، أن يستنبت نفسه من جديد، ويمدّ أغصاناً، ويورق. يتعلّم كيف يعيش زوجاً، ومواطناً، إنساناً يسعى وراء العيش، يشاهد الأطفال والغبار والشجر. يبدأ وهو في عامه السّادس والثلاثين حياة كان ينبغي أن يبدأها في عامه الثالث والعشرين.

قلت لتوفيق إنّني يجب أن أرى أحمد موسى، لابدّ أن أراه. قال اصبر، أعْطِ الرّجل فرصة ليتعرّف على زوجته. قلت بل يجب أن أراه فوراً، أريد أن أرى كيف يعود أوزيريس إلى الحياة في عصر خيانة.

مضينا معاً إلى المخيم. سرنا بحسب المخطّط المعطى لنا. وإذ اقتربنا ممّا افترضناه بيته، طلع بوجهنا صبيّان في نحو العاشرة. كانا يتجادلان بحرارة، ويشيران بيدين تحملان بارودتين بلاستيكيتين: كلّ منهما يريد الآخر أن يلعب دور الاسرائيلي لتقوم المعركة.

شاهدانا فتوقّفا. نظرا إلينا بصمت. ونظرنا إليهما.

قال الأوّل: ـ جئتم لزيارة أحمد موسى؟ هو في وكالة الغوث.

قال الثاني: ـ لا، ليس في وكالة الغوث. هو في الفرن يشتري الخبز.

قال الأوّل للثاني: ـ هو في الوكالة. راح من ساعتين.

قال الثاني للأوّل: ـ لا، هو في الفرن، يشتري الخبز.

قال الأوّل: ـ ساعتين في الفرن يا مجنون؟

قال الثاني: ـ نعم ساعتين. زحمة كبيرة في الفرن. أنت عارف الفرن.

قال الأوّل: ـ لا، لا. هو في وكالة الغوث.

نظر توفيق إليّ، ونظرت إليه.

١٩٧٩/٤/٦
١٩٨٣/٢/٤